

حتى لا يعود الشاه

ما حدث لثورة مصدق وما يحدث لثورتنا

هذه ليست محاولة لفهم ما حدث لثورة مصدق في إيران بقدر ما هي محاولة للتحذير مما قد يحدث لثورتنا في مصر.

أثناء إنشغاله بالبحث عن الوثائق التي تتناول علاقة الغرب بالحركات الإسلامية عشر رفیق الصبا والشباب أخي المهندس شريف وشاحي على بعض الوثائق التي تروي ما حدث لثورة مصدق في إيران، والطريقة التي استطاعت بها المخابرات البريطانية (M16) والمخابرات المركزية الأمريكية (CIA) أن تجهز هذه الثورة بعد عامين من بدايتها، ولا تكتفيان بإجهاض كل مكاسبها، بل وتعيدا تصميم الحياة السياسية في إيران بشكل يضمن إستقرار المصالح الغربية فيها .. ولاحظ صديقي العزيز بذكاء أوجه الشبه بين ما حدث عندهم وقتها وما يحدث عندنا الآن.

نحن لا نكتب بحثا تاريخيا، ولا يهمننا كثيرا ما الذي حدث بالضبط في إيران منذ وصل مصدق إلى السلطة في مايو 1951 حتى الإطاحة به في أغسطس 1953، إن ما نبحت عنه هو الأسلوب الذي استخدم في مواجهة هذه الثورة .. الطريقة التي فكر بها هؤلاء الذين أرادوا إجهاضها وطريقتهم في العمل وأدواتهم في تنفيذ خططهم، وأرجو أن تكتشف معنا أن ما يحدث في مصر الآن يتفق تماما وبصورة مدهشة مع تلك الطريقة في التفكير وذلك الأسلوب في العمل، ربما لا تتطابق كل الأحداث، فمصر اليوم ليست إيران من 60 سنة، لكننا

نجد ذات المنطق و ذات الطريقة في التفكير، وإذا عرفنا كيف يفكر العقل الذي يقف خلف الأحداث فربما أمكننا أن نتصور خطواته المستقبلية، كي نحتاط لأنفسنا ونحمي ثورتنا.

إن أحداث ثورة مصدق مدونة ومعروفة، فكل ما كتب عن ثورة الخوميني - تقريبا - يبدأ بسرد هذه الأحداث، كما يمكنك أن تكتب على أي محرك بحث على الشبكة العنكبوتية "ثورة مصدق" لتحصل على عشرات المداخل التي ترويها من وجهات نظر مختلفة، ونحن نستعرض هذه الأحداث بإختصار في الفصل الأول حتى يمكن للقارئ التفاعل مع موضوعنا وفهمه.

أما الفصل الثاني فهو محور هذا الكتيب، نعرض فيه أهم ملامح الخطة "أجاس" وخطوات تنفيذها، تلك الخطة التي وضعها فريق عمل مشترك بين المخابرات البريطانية والمخابرات المركزية الأمريكية ونفذها عملاؤهما لإسقاط مصدق ونظامه، وكل ما نعرضه إستقينا من مصدرين، الأول كتاب مارك كيرتس "Mark Curts" بعنوان "التواطؤ الإنجليزي والإسلام السياسي" "Secret Affairs .. Britain's Collusion with Radical Islam"، والثاني هو وثيقة سرية كتبها أحد خبراء وكالة المخابرات المركزية سنة 1954 ونشرتها التايمز في سنة 2000 بعد رفع الحظر عنها.

أما الفصل الثالث فهو بعض الدروس التي لا نشك أن القارئ يمكنه إستخلاصها بنفسه، لكننا أشرنا وضعها في نهاية الكتاب، فربما يفوت بعضها على القارئ الذي لم يكن يقرأ بالتركيز الكافي لإستخلاص كل الدروس.

ينبغي أن أوضح أن الفصل الأول في خروج هذا الكتاب هو للجهد الذي بذله المهندس شريف وشاحي في الوصول إلى مصدريه الرئيسيين، وإلى ملاحظاته التي استفدت منها كثيرا، أما الصياغة فإنني أتحمّل مسؤوليتها وحدي، وأرجو ألا تكون قد أضاعت بعض من جهد صديقي العزيز، ولكن الفصل الثالث هو أفكارى الخاصة التي أرجو ألا يكون فيها ما يختلف معه صديقي العزيز.

لقد كنا في عجلة لإخراج الكتاب فلم نشغل أنفسنا بإحالة إقتباساتنا إلى أماكنها في مصادرنا، لكن متن الفصل الثاني كله مستخرج من الكتاب و الوثيقة المذكورين عاليه، أما المعلومات والتواريخ الواردة في الفصل الأول فقد حصلنا عليها من الإنترنت ومن كتاب الأستاذ محمد حسنين هيكل "مدافع آيات الله" نشر دار الشروق.

نسأل الله أن يتقبل عملنا هذا وينفع به.

د م عاصم الفولي

القاهرة في 2011/11/22

الفصل الأول

ثورة مصدق - الوقائع

ولد محمد مصدق (1882 - 1967) لعائلة عريقة من سلالة القاجاريين الذين حكموا إيران لعدة قرون، وفي عام 1906، وهو في سن الرابعة والعشرين، إنتخب نائبا في البرلمان الإيراني عن أصفهان، ثم سافر إلى فرنسا لدراسة القانون وبعدها حصل على الدكتوراه في القانون الدولي من سويسرا، وبعد عودته إلى إيران أصبح وزيرا للمالية في حكومة أحمد قوام السلطنة عام 1921، ثم وزيرا للخارجية في وزارة مشير الدولة عام 1923.

أعيد إنتخابه في البرلمان وظهرت بوضوح ميولة الديمقراطية المعارضة لحكم العسكر عندما صوت ضد إنتخاب رضا خان (والد محمد رضا بهلوي) شاهها على إيران في عام 1925، لكن رضا خان حاز أصوات الأغلبية، فاحتل مصدق مكانه كمعارض بارز، وشارك في تأسيس حزب الجبهة الوطنية (جبهة ملي) وأصبح قائدا له .. فشخصية الدكتور محمد مصدق وآراؤه ومواقفه ونضاله كانت معروفة تماما للإيرانيين قبل وصوله للسلطة بربع قرن.

بسبب ميول رضا خان إلى الألمان خلال الحرب العالمية الثانية قام الحلفاء بعزلة وتصيب ابنه الشاب محمد رضا بهلوي شاهها على إيران محله.

في ذلك الوقت سيطرت إنجلترا على صناعة البترول، مصدر الدخل الرئيسي لإيران، وذلك من خلال شركة البترول الإنجليزية الإيرانية (AIOC) والتي عرفت فيما بعد بالبريطانية للبترول (BP)، وكانت هذه الشركة تدار من لندن ومملوكة للحكومة البريطانية مع مساهمين من القطاع الخاص الإنجليزي .. وفي أوائل الخمسينات غدت هذه الشركة دولة داخل الدولة.

كانت الحكومة الإيرانية تحصل على نسبة لا تتجاوز 12% من دخل الشركة مقابل حقوق التنقيب، بينما تحصل الحكومة البريطانية على 30% كضرائب، والباقي يعود إلى المساهمين - حكومة وقطاع خاص -

والذين كانوا كلهم إنجليز .. شعر الوطنيون الإيرانيون بالغضب الشديد من هذا الوضع الذي يجعل عائدات البترول البريطانية أعلى بكثير من عائدات إيران.

في أوائل 1950 إحتل مقعد رئاسة البرلمان الإيراني واحد من حلفاء مصدق الرئيسيين، هو آية الله قاشاني، الذي كان أكبر زعيم ديني في إيران، وهو أستاذ آية الله الخميني ومعلمه، وفي مارس 1951 صوت البرلمان الإيراني بالموافقة على قرار بتأميم شركة البترول.

في 28 إبريل 1951 إنتخب البرلمان الإيراني الدكتور محمد مصدق رئيسا للوزراء بأغلبية كاسحة (79 صوتا معه مقابل 12 صوتا ضده)، وبعد يومين فقط من توليه السلطة نفذ مصدق قرار البرلمان وأعلن تأميم شركة البترول الإنجليزية الإيرانية، وأصدر آية الله قاشاني فتواه الشهيرة "كل من يعارض قرار تأميم النفط الإيراني هو عدو للإسلام".

بمجرد صدور قرار التأميم سارعت إنجلترا إلى سحب كل فنييها العاملين في الشركة، وقادت حصارا دوليا على مبيعات النفط الإيرانية بدعوى أن إيران قد إنتهكت حقوق الشركة البريطانية، الأمر الذي أدى بالتدريج إلى تردي الأوضاع الإقتصادية في إيران إلى درجة بالغة السوء، وفي نفس الوقت بدأت حملة دعاية سوداء مكثفة وواسعة النطاق ضد مصدق وحكومته (وهو نفس ما قامت به ضد جمال عبد الناصر عندما أمم قناة السويس، غير أنها لم تفلح في مسألة مقاطعة القناة نظرا لعدم وجود بديل آخر للقناة المصرية بعكس البترول الإيراني).

في بداية عهد مصدق إنتف حوله اليمين واليسار، فقد كانت أهدافه وسياساته موضع إتفاق، فكان كل الوطنيين يدعمون تأميم البترول وتحجيم النفوذ البريطاني وإعادة السلطة للشعب .. أما الإسلاميون فقد كان أكبر علمائهم - آية الله قاشاني - حليفا رئيسيا لمصدق وساهم بشكل فعال في وصوله إلى السلطة عندما كان يرأس البرلمان الذي إنتخبه رئيسا للوزراء، واستمر لمدة عام تقريبا داعما لمصدق، ومن جهة أخرى فقد وجدته الحزب الشيوعي الإيراني - حزب تودة - شخصية مناسبة لقيادة البلاد في هذه الفترة، فمصدق راغب في تقليص النفوذ الغربي ورفض للدخول في الأحلاف الغربية التي كانت أمريكا تسعى لتطويق الإتحاد السوفياتي بها، وبالمقابل فإن مصدق - رغم معاداته للشيوعية - كان في حاجة لحزب تودة، بتنظيمه الحديدي وكفائته السياسية العالية، لموازنة الضغوط التي يتعرض لها حكمه من الشاة ومن الغرب.

سعى مصدق لتحرير القرار السياسي من سيطرة قادة الجيش والإقطاعيين وكبار موظفي الحكومة، فعمل على تغيير بنية الجيش كي لا يكون حكرا على أبناء الطبقة الأرستقراطية، محاولا زعزعة ولاء الجيش التقليدي للشاة، فقد أصبح جزء من رجال الجيش يحمل طموحات للتغيير تتناغم مع المد الشعبي السياسي

القائم، ولضرب سلطة كبار الملاك بدأ في تطبيق الإصلاح الزراعي¹، وهذه الإجراءات أكسبته بالطبع عداء الطبقة العليا التقليدية، لكنها أكسبته ثقة وولاء كتل اليساريين، وخصوصا الشيوعيين الإيرانيين، وحققت له تأييدا واسعا بين الطبقات الشعبية.

وفي 16 يوليو 1952، أثناء محاولته الحصول على الموافقة الملكية لإعادة تشكيل الوزارة، أصر مصدق على حق رئيس الوزراء الديمقراطي في تسمية وزير الحربية ورئيس أركان الجيش، لكن الشاة رفض، فاستقال مصدق وتوجه إلى الشعب معلنا: "إن الصراع الذي بدأه الشعب الإيراني لم يمكن تتويجه بالنصر".

أثارت إستقالة مصدق عاصفة سياسية وشعبية عنيفة راح ضحيتها كثير من المتظاهرين، وتميزت هذه الحركة بتحالف مؤقت وعابر، ولكنه كان مفيدا، بين مختلف الإتجاهات والحركات السياسية يسارية ودينية وليبرالية، وأصدر آية الله قاشاني فتوى بوجوب إنضمام عناصر الشرطة إلى المتظاهرين ضد الشاة وإعلان العصيان، وكانت هذه هي المرة الأولى التي يلعب فيها رجل دين دورا في الحياة السياسية .. وكانت مقدمة لما تلاها.

إنتهت الأزمة بتسليم الشاة بطلبات مصدق وعودته لرئاسة الوزارة، وربما ظن المراقب وقتها أن قطار الثورة قد إكتسب زخما هائلا وبات يصعب إيقافه قبل أن يصل إلى مده.

لكن، وبرغم كل شيء، توترت العلاقة بين مصدق وقاشاني في بداية 1953، ولا يبدو لنا واضحا السبب الحقيقي في التباعد بين الرجلين، فبعض المصادر تعزو ذلك إلى تشكك قاشاني في نوايا مصدق بسبب تحالفه مع الحزب الشيوعي .. هذا التحالف كان بمقدور الدعاية الإنجليزية إستخدامه للتشكيك في توجهات مصدق، لكننا نعتقد أن قاشاني كان بالتأكيد يعرف أن عداء مصدق للشيوعية كان أصيلا، نتيجة نزعة القومية وأصوله الأرسطراطية ومبادئه التحررية.

وهناك مصادر أخرى تذكر أن السبب هو نزعة مصدق للإستحواذ على السلطة، لكن هذا أيضا لا يبدو لنا معقولا، فإيمان مصدق بالديمقراطية لم يكن قناعا يتخفى خلفه ديكتاتور، وصراعه مع الشاة على تسمية الوزراء لم يكن صراع على سلطة لكنه كان موقفا صلبا لإنتراع حق ديمقراطي يملكه كل رئيس وزراء في

¹ 2017 - وجه الأستاذ مجدي حسين نقدا شديدا لنظام الرئيس محمد مرسي خلال فترة حكمه - فك الله أسرهما - لأنه تقاعس عن اتخاذ بعض الإجراءات الممكنة لضرب سيطرة ملياديرات نظام حسني مبارك، والذين كانوا بحكم مصالحهم موالين للحلف الصهيوني وأمريكي ومناهضين للثورة المصرية، وإذا قسنا الأمور بما حدث لتجربة مصدق فربما ظننا أن مثل هذه الإجراءات لم تكن لتغير من الأمر شيئا، وكان الإنقلاب سيحدث على أي حال، لكن هذا قياس فاسد، فنحن كنا نملك رصيد الدروس المستفادة من تجربة مصدق وغيرها من تجارب الثورات الوطنية الناجحة والمجهضة حول العالم، الأمر الذي كان يرجح قدرتنا على إجهاض الخطة أجاكس، لكن هذا ليس هو مربط الفرس، أعتقد أنه كان على الرئيس مرسي أن يتخذ هذه الإجراءات حتى يتضح للمصريين ولغيرهم طبيعة الحل الإسلامي الذي ندعو إليه، وبعدها، سواء نجح الإنقلاب أو فشل، سيكون لدينا الفرصة لأن نشرح للجماهير، وكانت ستصدقنا، أن الأمر ليس صراعا على السلطة، بل هو صراع بين مشروعين، مشروع إسلامي وطني للتحرر والنهضة، ومشروع آخر يعمل في إتجاه إستمرار التبعية وضرب محاولات النهضة.

ملكية دستورية .. ولم يكن قاشاني منافسا محتملا على السلطة، فنظرية ولاية الفقيه لم تكن قد ظهرت بعد²، وكان قاشاني مخلصا للنظرة الشيعية الإمامية التقليدية التي تذهب إلى أن السلطة هي حق فقط للإمام الغائب في كهف سامراء والذي ينتظرون خروجه ليملاً الأرض عدلا كما ملئت جورا وظلما (حتى الآن كلما ذكروه يقولون: الإمام الغائب عجل الله فرجه).

ربما كان مصدق يضيق أحيانا برغبة قاشاني في التدخل في القرارات السياسية باعتباره رئيسا للبرلمان، ولكن أسلوب مصدق في إدارة دفة الأمور يرجح عندنا أنه كان أذكى من أن يخسر حليفا قويا، فالرجل الذي كان بإمكانه إدارة تحالف مع الشيوعيين مع كراهيته الأصلية للشيوعية تجعلنا نستبعد عجزه عن التعاون مع قاشاني الذي كان حليفا له قبل وصوله إلى السلطة.

إذا صدقت المزاعم التي يحكيها "مارك كيرتس" في كتابه والتي سنذكرها في الفصل الثاني فربما إقتنعت أن السبب الحقيقي هو الإسفين الذي دقه عملاء المخابرات البريطانية بين الرجلين، دون أن نستبعد وجود بعض أو كل الأسباب الأخرى، لكنها لو وجدت فعلا ما كانت لتؤدي إلى هذه القطيعة بين الرجلين لولا هذا الإسفين.

أيا ما كانت الأسباب فقد إنتهت بإقصاء قاشاني عن رئاسة البرلمان ليتحول بعدها إلى صفوف المعارضين لمصدق، بل إلى واحد من ألد خصومه، وليفصل الأمر إلى إندلاع أعمال شغب في طهران في فبراير 1953، وإلى مهاجمة منزل مصدق في محاولة لإغتياله.

وبعدها بقليل بدأت تتردد على ألسنة المسؤولين الأمريكيين - بمن فيهم الرئيس الأمريكي نفسه - نغمة عدم إرتياح الولايات المتحدة لعزوف حكومة مصدق عن الإنضمام إلى شبكة الأحلاف التي كانت أمريكا تحاول أن تحيط بها الإتحاد السوفياتي للحد من نفوذه في المنطقة.

إشتد إستحكام الأزمة الإقتصادية في إيران بسبب الحظر الدولي الذي قاده إنجلترا على صادرات النفط، حتى وصل الأمر في أغسطس 1953 إلى أن الحكومة باتت تعاني من أزمة سيولة تنذر بعدم قدرتها على دفع رواتب موظفيها في نهاية الشهر، لكن الشهر لم يصل إلى نهايته إلا ومصدق خارج السلطة، ولم تكن الأزمة الإقتصادية هي السبب الوحيد، فمنذ إقصاء قاشاني عن رئاسة البرلمان تواترت أحداث الشغب والفوضى في شوارع طهران، وبدا واضحا أن رجال الدين الشيعة، وعلى رأسهم قاشاني بالطبع، يتخذون موقفا عدائيا

² كان الخوميني هو أول من تبنى هذه النظرية، والفكرة فيها أن السلطة هي حق فعلا للإمام المعصوم الغائب "عجل الله فرجه"، لكن هذا لا يعني أن يستكين الشيعة لحكم الظلمة وينتظروا خروج الإمام في سلبية كما ترى النظرة التقليدية، فالخوميني أقنع جزء لا بأس به من علماء الشيعة - وليس كلهم - أن عليهم أن يختاروا فقيها تكون له الولاية وتجب له الطاعة حتى يقوم بأمر الناس لحين خروجه.

واضحا من مصدق ويدعون لإسقاطه، حتى أصدر بعضهم فتوى أن مصدق عدو للإسلام، وفي النهاية جاء الإنقلاب.

في 15 اغسطس حاول بعض رجال الحرس الشاهنشاهي مهاجمة منزل مصدق وإعتقاله، غير أن بعض وحدات الجيش الموالية لمصدق أحبطت المحاولة وبدأت مطاردة من قامت أدلة على تورطهم فيها، وهرب الشاه إلى بغداد ثم روما، بعد أن ترك خلفه فرمانا بعزل مصدق وتعيين الجنرال فضل الله زاهدي رئيسا للوزراء، وحاول مصدق تجاهل هذا الفرمان وإخفائه، لكنه طبع وتم توزيعه على نطاق واسع، فحاول مصدق الدفاع عن موقفه بأن رئيس الوزراء لا يكتسب سلطة شرعية إلا إذا كان منتخبا من البرلمان (وكان هذا الدفاع صحيحا) ، لكن في 19 أغسطس إندلعت المظاهرات الشعبية في طهران وعدد من المدن الكبرى تؤيد الشاه وحقه في تعيين من يراه وتتادي بسقوط مصدق، وعند الظهرية تحركت بعض وحدات الجيش للقبض على مصدق ورجاله، وبث راديو طهران بيانا من الجنرال زاهدي أعلن فيه أنه هو الرئيس الشرعي للحكومة، ولم ينته النهار إلا وكل رجال نظام مصدق إما معتقلين أو هاربين، وتوالت بيانات التأييد للشاه ولزاهدي، وكان ثاني المتحدثين في إذاعة طهران هو محمود إبن آية الله قاشاني.

عاد الشاه إلى طهران وقبض على زمام الأمور بيد من حديد، وصار شيئا فشيئا طاغية مستبد يعتمد في حكمه على جهاز السافاك (أمن الدولة الشاهنشاهي) الرهيب، وألغى كل الأحزاب عدا الحزب الحاكم .. أما زاهدي فقد استمر رئيسا للوزراء لمدة عامين، وصل خلالها إلى تسوية لموضوع البترول أعطت 40% من العائدات لإنجلترا ومثلها لأمريكا، وتبقى لإيران 20%، وحوكم مصدق محاكمة وصفت بأنها صورية، إنتهت بالحكم عليه بالإعدام، وخفف الحكم إلى الحبس ثلاث سنوات ثم وضعه رهن الإقامة الجبرية في منزله بقرية أحمد آباد حتى وفاته في 1967.

* * * * *

الدور الأنجلو أمريكي في الإطاحة بمصدق

يعتمد هذا الفصل على مصدرين يرويان من الوثائق السرية الطريقة التي عمل بها جهاز المخابرات البريطانية (M16) ووكالة المخابرات المركزية الأمريكية (CIA) للإطاحة بمصدق، وهما:

1- كتاب مارك كيرتس "Mark Curts" بعنوان "التواطؤ الإنجليزي والإسلام السياسي" "Secret Affairs .. Britain's Collusion with Radical Islam" .. وهو كتاب يعتمد على الوثائق البريطانية السرية، بعد رفع السرية عنها، وعلى تصريحات علنية لبعض الساسة والديبلوماسيين الإنجليز، ومذكرات لرجال مخابرات متقاعدين.

2- التقرير السري الذي أعده دونالد ويلبر Donald N. Wilber في سنة 1954 ، بعد عام من سقوط مصدق، عن الخطوات التي إتخذتها وكالة المخابرات المركزية الأمريكية ودورها في العملية، وقد كتبه بتكليف من الوكالة بإعتباره واحد من الخبراء الذين شاركوا في العملية ليحكي فيه قصة التخطيط والتنفيذ والمشاكل والحلول، ليكون وثيقة مرجعية سرية داخلية عن العملية والدروس المستفادة منها، وحمل التقرير عنوان "Overthrow of Premier Mossadeq of Iran" .. ونشرته التايمز في سنة 2000 بعد رفع حظر السرية عنه.

لقد حرصنا على أن تكون كل الأفكار الواردة في هذا الفصل نقلا عن هذين المصدرين، لم نتدخل إلا بالترجمة والصياغة فقط، ووضعنا تعليقاتنا ووجهة نظرنا في الهوامش حتى لا يلتبس الأمر على القارئ ولا تختلط أفكارنا مع أفكارهم.

1- مهلة للتخطيط

كانت المعارضة الإيرانية الوطنية تعبر دائما عن غضبها الشديد من وضع شركة البترول الإنجليزية الإيرانية، داعية إلى تأميم هذه الشركة ليكون بترول الإيرانيين للإيرانيين، وفي المقابل كان الموقف الإنجليزي هو كما ورد على لسان السفير البريطاني في إيران: "من المهم منع الإيرانيين من تدمير أهم مصدر لإيراداتهم .. عندما يريدون إدارته بأنفسهم .. إن ما تحتاجه إيران ليس هو أن تدير بنفسها صناعة البترول فيها - لأنها لن تستطيع ذلك - ولكن ما تحتاجه هو أن تستفيد من القدرات الفنية الغربية في ذلك" .. لكن بالطبع (وهذا رأي مارك كيرتس) أثبتت الحوادث فيما بعد ما كان يعرفه البريطانيون منذ البداية .. كان الإيرانيين بالفعل قادرون على إدارة صناعتهم بكل كفاءة.³

عندما أعلن مصدق تأميم شركة البترول سارعت إنجلترا إلى سحب كل فنييها العاملين في الشركة، وقادت حظرا دوليا على صادرات البترول الإيرانية، لكن لم يكن واضحا في البداية ما الذي يمكن عمله لاستعادة الشركة، الأمر المؤكد وقتها كان هو أنه يجب إرباك مصدق وعمل كل ما يمكن لضمان عدم استقرار حكومته. لكن سرعان ما وصل خبراء المخابرات البريطانية إلى أنه من المستبعد إمكانية الوصول إلى أي حل مع وجود مصدق، كما أعلن مسئول بريطاني فيما بعد: "كانت سياستنا هي التخلص من مصدق بأقصى سرعة ممكنة"، وقال السفير البريطاني: "إن أفضل حل لإيران هو ديكتاتور يمكنه عمل الإصلاحات الاقتصادية المطلوبة وتأمين حل مشكلة البترول على أسس مرضية"⁴ .. وكان يقصد بالطبع عكس عملية التأميم.

بدءا من نوفمبر 1952 (بعد 18 شهرا من التأميم) بدأت الترتيبات الفعلية للتعاون بين المخابرات البريطانية والأمريكية في حل مشكلة مصدق في إيران، لقد استغل البريطانيون تحالف مصدق مع حزب تودة الموالي للسوفييت لدفع الأمريكيين للتعاون معهم من خلال إثارة مخاوفهم من وقوع إيران في فلك السوفييت، وذلك كما قال مسئول بريطاني فيما بعد: "سيكون الأمريكيين أكثر استعدادا للتعاون معنا في إيران إذا كان المطلوب هو محاصرة المد الشيوعي مما لو كان الهدف هو إستعادة وضع شركة البترول"⁵ .. ومع ذلك فلا الملفات البريطانية ولا الأمريكية أظهرت وجود أية مخاوف حقيقية من سيطرة الشيوعيين على إيران، لكن الخطر الحقيقي الذي تظهره هذه الملفات هو التهديد الكامن في المثل الذي يضربه إستقلال مصدق عن المصالح الغربية والذي يمكن أن يكون قدوة للقوى الوطنية في سائر دول المنطقة.^{6 7}

³ لعل القارئ يذكر أن نفس الفكرة تقريبا قبلت عن المصريين عندما أمم جمال عبد الناصر قناة السويس بعدها بخمس سنوات.

⁴ 2017 - هل ترى التطابق؟ ليس فقط في خطة إسقاط الرئيس، ولكن أيضا في طبيعة البديل الذي سيوضع مكانه.

⁵ لم يظهر واضحا في هذه المصادر لماذا كانت إنجلترا في حاجة لتعاون أمريكا معها في إيران، هل كانت في حاجة للموارد الأمريكية (أجهزة أو أموال أو أفراد)، أم كانت في حاجة للتقل الأمريكي حتى لا تعمل منفردة على الحدود الجنوبية للإتحاد السوفياتي، أم أنها كانت ببساطة لا تريد العمل بعيدا عن الولايات المتحدة حتى لا تعرقل هذه الأخيرة أهدافها؟ .. وهذا التفسير الأخير ينبغي أخذه في الإعتبار، فعندما عملت إنجلترا بعيدا عن أمريكا في مصر أثناء أزمة السويس وقفت أمريكا ضدها، وكان الإنذار الأمريكي بالإنسحاب واحدا من أهم عوامل خروج مصر منتصرة من هذه الأزمة.

⁶ وهذا هو بالضبط ما نراه الآن .. يثيرون لغطا حول وصول الإسلاميين للسلطة بدعوى الخوف على الحريات المدنية وعلى حقوق الأقباط، ويزعمون أن الإسلاميين في السلطة سيقدمون دعما، ولو مستترا، لحركات "الإرهاب الإسلامي" .. إلخ .. بينما الحقيقة هي

في مارس 1953 إتخذت الحكومة الأمريكية قرارها، وقامت وزارة الخارجية بإخطار وكالة المخابرات المركزية رسميا بأن وجود حكومة مصدق يتعارض مع مصالح الولايات المتحدة الأمريكية، وأن المطلوب إزاحته لتحقيق الأهداف التالية:

- الهدف الأساسي هو أن تعتلي السلطة حكومة تصل إلى إتفاق مقبول بشأن البترول الإيراني.
- ويمكنها تحقيق إستقرار إقتصادي لإيران وتوفير سيولة مالية للعمل الحكومي.⁸
- ويمكنها معاقبة الحزب الشيوعي الإيراني الذي أيد مصدق.⁹

وفي 16 إبريل إنتهى خبراء وكالة المخابرات المركزية من تقرير يحمل التقديرات الأولي تحت عنوان "Factors Involved in the Overthrow of Mossadeq" .. ووصل التقرير إلى أن التخلص من مصدق يمكن أن يتم من خلال إنقلاب بعمل مشترك مع المخابرات البريطانية، وبنهاية إبريل تم تشكيل فريق عمل مقره قبرص لوضع الخطة وتقديمها للعرض على قيادات المخابرات ووزارتي الخارجية في البلدين، وفي 3 يونيو سافر السفير الأمريكي في طهران إلى أمريكا ليشارك في مناقشة أهداف ونوايا وكالة المخابرات المتعلقة بخطة الإنقلاب.

إنتهى الخبراء من وضع أول خطة لمشروع "أجاس" (الأسم الكودي لعملية الإنقلاب على مصدق) في 10 يونيو 1953 وسلمت إلى كيرميت روزفلت - مسئول قسم الشرق الأدنى وأفريقيا في المخابرات المركزية - لدراستها مع باقي فريق العمل، وأرسلت نسخة منها إلى لندن في 14 يونيو.

وفي 19 يونيو قدم كيرميت روزفلت الخطة بعد مراجعتها مع فريقه إلى وزير الخارجية الأمريكية ومدير وكالة المخابرات وسفير أمريكا في إيران، وفي نفس الوقت أرسلت نسخة منها إلى وزارة الخارجية البريطانية.

أن تحقيق التنمية المستقلة التي تضمن نهوض شعوبنا لا يمكنها أن تتم بدون الإرتكاز على الزخم الذي يقدمه الإسلام لهذه العملية، وبدون الزاد المعنوي الذي يحقنه في عروق الأمة كي تتحمل آلام النمو وتجتاز مخاض النهضة، وإذا كنت تظن أن أغلب الحركات الإسلامية تقتصر إلى برامج للنهضة فذلك لأن الإستبداد كان يجعل إعداد مثل هذه البرامج مضيعة للوقت والجهد، أما إذا كنت ترى أنها تقتصر إلى الكوادر فأنت غالبا مخطئ وستثبت لك التجربة إن شاء الله أن الإسلاميين عندهم من أهل الخبرة والإختصاص ما يمكنهم من قيادة الأمة .. وأما ما تراه من شقاق بين الإسلاميين وغيرهم فهو ظاهرة مؤقتة، فعندما يكون مستقبل الأمة كلها على المحك سيكون الإخلاص للوطن ولقضاياها هو أساس التجمع وسيترجع للخلف كل تمايز آخر.

⁷ 2017- أعترف الآن أنني كنت متفائلا أكثر من اللازم في ملاحظتي الواردة بالهامش السابق، فرغم معرفتي بالعديد من الكفاءات الفنية والمهنية والسياسية ضمن أبناء الحركة الإسلامية، فلم أجد منهم في فريق الرئيس مرسي وحكومة الدكتور قنديل إلا عددا يقل عن أصابع اليد الواحدة، ولا تعلم لماذا لم يتم الاستعانة بالآخرين، أما استمرار الشقاق بين السلفيين والإخوان فمن أشد الأمور مدعاة للأسف، ولا يمكن إرجاعه لحقيقة أن العديد من قيادات السلفيين كانوا صناعة أمنية، فقد كان منهم أيضا من لا يمكن التشكيك في إخلاصهم ونزاهتهم وفقههم، ولا ندري كيف سمح الإخوان بتأزم الوضع، لكن قدر الله وما شاء فعل.

⁸ يمكنك أن تصدق أنهم فعلا يريدون توفير سيولة للحكومة الجديدة التي سيضعونها مكان حكومة مصدق، لكن لا تنسى أنهم هم الذين خلقوا أزمة السيولة التي لم تكن لتوجد من الأصل لو لا الحظر الذي فرضوه على مبيعات البترول.

⁹ لكن لا يمكنني أن أصدق أنهم يريدون معاقبة الحزب الشيوعي لأنه أيد مصدق، كأنه لو عارض مصدق كانوا تركوه وشأنه [!!] كانوا سيعاقبونه أيضا لأنه شيوعي، فذنب مصدق عند أمريكا كان أنه رفض الإنضمام للأحلاف التي أقامتها لمحاصرة الشيوعية.

طلبت وزارة الخارجية الأمريكية التأكد من نقطتين قبل اعتماد الخطة:

الأولى: أن الحكومة الأمريكية سيكون لديها الفرصة أن تقدم دعماً مناسباً للحكومة التي ستحل محل مصدق بحيث يضمن بقائها في السلطة لحين تسوية موضوع البترول.

الثانية: أن تقدم الحكومة البريطانية تعهداً كتابياً للخارجية الأمريكية بأنها ستعمل على الوصول بسرعة إلى إتفاقية مناسبة للبترول مع الحكومة الجديدة في طهران.¹⁰

وقد حصلت الخارجية الأمريكية على إجابات مرضية لها في كلا النقطتين.

وفي أوائل يوليو 1953 إنتهى فريق العمل من وضع كل التفاصيل وأعطت كل من وزارتي الخارجية الأمريكية والبريطانية موافقتها على تنفيذ الخطة، وتم تحديد منتصف يوليو لبدء التنفيذ.¹¹

**

2 - آية الله قاشاني

في تقدير المخابرات البريطانية كان آية الله قاشاني هو أهم شخصية دينية في إيران في ذلك الوقت، وقد اعتقله الإنجليز في 1944 لأنه اتصل ببعض العملاء الألمان وقدم لهم بعض المساعدات¹²، كما ساعد في نفس العام في تأسيس منظمة "فدائيان إسلام"، وهي منظمة جهادية أصولية (ذات صلة بالإخوان المسلمين في مصر حسب مصادر المخابرات البريطانية) والتي تبنت خط العنف وقامت ببعض الإغتيالات، منها محاولة فاشلة لإغتيال الشاه، ونجحت بالفعل في إغتيال رئيس وزرائه علي رازمارا في 1951، لكن قاشاني كان قد إبتعد عن المنظمة في ذلك الوقت.

¹⁰ حتى تفهم ماهي التسوية المناسبة من وجهة نظر الخارجية الأمريكية تذكر أن إتفاقية البترول التي وقعتها إيران بعد رحيل مصدق أعطت 40% من العائدات لأمريكا.

¹¹ من حق القارئ أن يتساءل عن علاقة كل هذه المواعيد والتواريخ بموضوع البحث الذي هو طريقة التفكير وأسلوب العمل .. والواقع أن هذه التفاصيل لا قيمة لها من وجهة النظر هذه، ولكنها مهمة حتى ندرك تعقيدات هذه العملية والوقت الذي تحتاجه حتى يصلوا لفكرة يتفقوا عليها ثم خطة عمل يبدأوا في تنفيذها .. ففي حالة مصدق إستغرق الأمر عدة أسابيع ليصلوا إلى قرار بأن حل مشكلة البترول غير ممكن في وجود مصدق ولا بد من رحيله، ثم احتاجوا إلى عام كامل ليتفق جميع الأطراف على الإطاحة به من خلال إنقلاب وليس بأية وسيلة أخرى، وأنه سيكون عملاً مشتركاً بين الإنجليز والأمريكان، ثم احتاجوا لوقت آخر لتحديد من الذي سيضعونه مكان مصدق، ولما حددوه بدأوا في وضع التفاصيل وتقسيم الأدوار وتوزيع المهام .. إلخ.

¹² لم يكن هذا غريباً في دول المستعمرات خلال الحرب العالمية الثانية، من باب عدو عدوي صديقي، ففي مصر حاول بعض الوطنيين المصريين الإتصال بالألمان، وخرجت المظاهرات في شوارع القاهرة تهتف: إلى الأمام يا روميل، بل قيل أن فاروق نفسه إتصل بالألمان على أمل أن يساعده على التخلص من الإنجليز إذا انتصروا عليهم.

وكما لاحظ تقرير أمريكي فإن قاشاني كان مثله مثل مصدق يحظى بتأييد شعبي كبير، وكان يدعم بحماس سياسات الجبهة الوطنية (حزب مصدق) فيما يتعلق بالبتروول وبتقليص النفوذ البريطاني، وبإستبدال سيطرة القوى التقليدية على السياسة ونقلها إلى الشعب من خلال برلمان منتخب إنتخابا نزيها ليكون معبرا تعبيراً حقيقياً عن المصالح الوطنية.

إعتمدت جاذبية قاشاني في الشارع الإيراني - حسب ملاحظات المخابرات البريطانية - على وجود أتباع كثيرين له ضمن تجار البازار (السوق القديمة في طهران)، وهذا كان يعطيه قدرة كبيرة على تحريك المظاهرات.

وتشير الوثائق السرية التي أتاحت مؤخراً إلى أن كلا من الإنجليز والأمريكان بحثوا فعلاً فكرة وضع قاشاني خلفاً لمصدق، فقد كتب آلان روثني - المسئول في مكتب الشؤون الخارجية البريطاني - أن أنطوني إيدن، وزير الخارجية، ناقش مع مدير وكالة المخابرات المركزية الأمريكية إمكانية أن يكون قاشاني هو بديل مصدق، وقال روثني أنهما أعربا عن أنهما سيكونا سعيدين إذا علما أن معلومات جهازي المخابرات تنفيذ أنه من الممكن التعايش مع قاشاني كرئيس لوزراء إيران، لقد شعرا أنه سيكون من الأسهل وضع قاشاني محل مصدق، لكن ساورتها شكوك عن إمكانية ضبطه على خط معقول إذا وصل إلى السلطة.

لكن الخبراء الإنجليز والأمريكان إتفقوا على رأي واحد: إن وجود قاشاني في السلطة سيكون عبئاً ثقيلاً، فهو ذو شخصية مستقلة إلى حد كبير، ويذكر تقرير مكتب الشؤون الخارجية الإنجليزي أن قاشاني سيكون عائقاً أمامنا كخليفة لمصدق بصفة عامة، وبالذات في قضية البترول، واعتبره التقرير معادياً للغرب أكثر من مصدق، فهو يكن عداوه خاصة للإنجليز بعدما تم إعتقاله خلال الحرب الثانية، وهو رجعي تماماً ومعارض للإصلاح السياسي .. سيقبل بالطبع الحصول على أموال من الغرب، لكنه لن يتبع بالتأكيد خطاً مرضياً في موضوع البترول.

لكن التعليقات الموجودة على ذات التقرير توضح أن مسئولين آخرين في الخارجية يقترحون أن يكون قاشاني مجرد قنطرة للعبور من الحالة المضطربة التي خلقها مصدق إلى حالة أكثر قبولاً، وتساءل أحد المسئولين: ألا يمكن وضع قاشاني مكان مصدق لفترة يمكننا خلالها إمتلاك القدرة على وضع نظام أكثر تعاوناً ليحقق "الإصلاحات المطلوبة" .. كانت وجهة نظر بعض الخبراء الإنجليز إنه برغم عدم إمكانية الوثوق بقاشاني إذا إستمر في السلطة فيمكن مع ذلك إستخدام قوته لتحطيم مصدق.¹³

¹³ هل لاحظت كيف يفكرون؟ .. لا مانع من دعم شخصية أو قوة سياسية معادية لهم، ما دام هذا الدعم سيفقد الثورة زخمها، وبعد ذلك يتم التخلص من الجميع.

ويذكر مارك كيرتس أن المخابرات البريطانية - من خلال عدد من عملاءها على رأسهم الأخوين راشدي - هي التي جعلت قاشاني ينقلب على مصدق ويدعم جهود الإطاحة به.

**

3 - محمد رضا بهلوي

كان تعاون الشاه أمرا حيويا لنجاح الخطة، وذلك لضمان تأييد بعض قطاعات الجيش في طهران للإنتقال، والأهم: لإضفاء الشرعية على رئيس الوزراء الجديد، ولما كان الشاه ينظر إليه وقتها على أنه متردد وعديم القدرة على إتخاذ قرارات كبيرة، فقد قرروا أنه يجب أن تمارس عليه بعض الضغوط كي "يتعاون"، فاقترضت الخطة أن يتم الضغط من خلال ما يلي:

- أن يرسلوا إليه الأميرة أشرف بهلوي - أخته التوأم والتي كانت في أوروبا وقتها - لتمارس تأثيرها عليه، والذي كان كبيرا، لتضغط لإقضاء مصدق، وعليها أن تخبره أن حكومتا أمريكا وإنجلترا طلبتا منها أن تفعل ذلك.
- أن يذهب إليه الجنرال الأمريكي شوارتسكوف، الذي كان الشاه معجبا به ويكن له قدرا كبيرا من الإحترام، ليشرح له الخطة ويقنعه بإصدار فرمان شاهنشاهي بإقضاء مصدق وتعيين الجنرال فضل الله زاهدي مكانه.
- أن يقوم العميل الرئيسي للمخابرات البريطانية في إيران، والذي كان قد وطد علاقته بالشاه، بمقابلته لتدعيم طلبات شوارتسكوف، ولكي يؤكد للشاه أنها عملية مشتركة بين الحكومتين الأمريكية والبريطانية.
- تتويجا للخطوات السابقة يقوم كيرميت روزفلت، باعتباره ممثلا شخصيا للرئيس الأمريكي، بإقناع - أو الضغط على - الشاه لتوقيع فرمان الذي طلبه شوارتسكوف، على أن يتسلم روزفلت فرمان ويحتفظ به عنده، بحيث لا يظهر إلا في الوقت المناسب، عندها ستسلمه المخابرات المركزية للجنرال زاهدي.

وتم التأكيد على أن المخابرات المركزية، من خلال عملائها في الجيش الإيراني، ستعمل على ضمان أن تدعم قوات الجيش في طهران رئيس الوزراء الجديد الذي عينه الشاه .. ومع ذلك قرر فريق التخطيط أن الشاه يجب أن يكون خارج طهران يوم الإنتقال، وذلك لتفادي إحتمال أن يتراجع في اللحظة الحاسمة ويفسد الخطة، أو أن يتم الضغط عليه لسحب توقيعه على فرمان، أو ببساطة يتم إغتياله وإعلان الجمهورية .. المهم أن

يكون الشاه خارج البلاد في اللحظة التي يقوم فيها زاهدي، متسلحا بالفرمان وبمعاونه رجاله في الجيش، بالإستيلاء على السلطة.^{14 15}

**

4 - قبل الانقلاب

ذكرنا أن خطة الانقلاب لم يتم إتمامها إلا في يوليو 1953، وأن قرار الانقلاب لم يتخذ إلا بعد حوالي سنة كاملة من تولي مصدق رئاسة الوزارة، لكن هذا لا يعني أنهم ظلوا ساكنين بدون حركة حتى يتم وضع خطة لينفذوها، فالواقع أنهم بدأوا من أول لحظة في إتخاذ كل الخطوات التي تربك عمل مصدق وتحاصره، كما شرعوا في تجنيد الأعوان وكسب الولاء لهم وللشاه في مواجهة مصدق، وكان أهم جهودهم هو ذلك الذي توجه لكسر التحالف بين مصدق وقاشاني، وقد أنجزوا خطوات كبيرة في كل ما سبق قبل أن يكون لهم خطة واضحة المعالم للانقلاب.

يذكر مارك كيرتس أن الحكوميين البريطانيين كانوا يعرفون أن حكومة مصدق كانت بصفة عامة حكومة ديمقراطية وصالحة، وطنية ومعادية للشيوعية، وفي أحاديثه الخاصة كان السفير البريطاني في إيران يعترف: "إن ما يميز حزب مصدق هو أن كوادره عموماً لم يتورطوا في ممارسات إستغلال السلطة لتحقيق منافع خاصة" .. وهذا بالطبع لا يمنع من إسقاطه طالما كان وجوده متعارضاً مع مصالحهم.

شرعت المخابرات البريطانية في إستخدام المدفوعات المالية المنتظمة لتأمين تعاون بعض قادة الجيش والشرطة ونواب في البرلمان، ورجال دين وتجار ومحربي صحف وبعض كبار موظفي الحكومة، كما بدأت في الشهور الأخيرة من 1952 في تزويد قادة القبائل المتمردة في الشمال بالسلاح، وأوضح مسئول في المخابرات البريطانية أن هؤلاء "المتعاونين" هم الذين سيمكنهم السيطرة على طهران والمدن الرئيسية عندما

¹⁴ ربما رغبتنا الآن في توجيه اللوم إلى مصدق، وللحركة الوطنية الإيرانية بصفة عامة، لأنها لم تقم بعد الإنتفاضة الشعبية التي أعادت مصدق إلى السلطة في يوليو 1952 بعد أزمتته مع الشاه بإتخاذ مواقف حاسمة تجاه سلطات الشاه، ولو أدى الأمر لعزله وإعلان الجمهورية، وقد كان هذا هو توجه الحزب الشيوعي الإيراني بالفعل .. نحن لا نمتلك فكرة دقيقة عن الظروف وقتها، ولا ندري ما هي المخاوف التي منعت الحركة الوطنية من القيام بمحاولة عزل الشاه، لكن المؤكد أنها دفعت ثمناً غالياً نتيجة لإحجامها، ولم تكن الأمور لتكون أسوأ لو أنها حاولت وفشلت.

¹⁵ 2017 - الآن يمكننا تصور ما حدث، إذ يبدو أنها نفس الحالة التي تملكها الرئيس مرسى بعد عزل طنطاوي وعنان .. كان وقتها في ذروة شعبيته، وكان قادراً، في تقدير أكثر المحللين، على أن يتخذ قرارات كبيرة لتصفئة نفوذ كل تركة نظام مبارك في السلطة، خاصة في الجيش والشرطة والقضاء، لكنه لم يفعل، وحتى الآن لم نعرف ما الذي منعه، ربما أن الأمر لم يخطر بباله [!]]، وربما ظن أنه قطع رأس الأفعى وسيتمكن بسهولة من التعامل مع الذيل، لا نعرف، وعلى الأرجح لن نعرف، كما لم يعرف الإيرانيون حتى اليوم لماذا لم يتم عزل الشاه وإعلان الجمهورية.

يحين الوقت، ومن الأفضل أن يتم ذلك بدعم من الشاه، ولكنهم سيستطيعون الحركة وإنجاز المطلوب حتى بدون هذا الدعم إذا إقتضت الظروف.

ولقد ساهم إثنان من عملاء المخابرات البريطانية، والذان كانا أيضا على صلات جيدة بالقصر الملكي، في توتر العلاقة بين مصدق وقاشاني وسائر القادة الدينيين في إيران (لم تذكر المصادر التي بين أيدينا شيئا عن التكتيكات الفعلية التي إستخدموها للوقية، لكنها تؤكد أن هذين العمليين كان لهما الفضل الأكبر في تحقيقها)، وكانا هما قناة الإتصال بين قاشاني والبريطانيين، ومن خلالهما وصل التمويل الإنجليزي إلى قاشاني،¹⁶ ويقول ستيفن دوريل - واحد من رجال المخابرات البريطانية - أن عصابات الزعران (البلطجية) التي قامت بأعمال شغب واسعة النطاق في طهران في فبراير 1953، بعد إقصاء قاشاني من البرلمان، قد تم تمويلها جزئيا من أموال تلقوها من قاشاني، ومن تمويل مباشر من البريطانيين إلى زعيم زعران طهران.

كما تضمنت الأعمال التحضيرية - التي تمت قبل وضع خطة الإنقلاب - إستخدام عملاء المخابرات البريطانية والأمريكية ليعملوا في الشارع الإيراني كما لو كانوا أعضاء في تودة (الحزب الشيوعي الإيراني) وليقوموا ببعض العمليات الإرهابية، بهدف تعميق الفجوة بين مصدق وقاشاني ورجال الدين، وبهدف ضرب شعبية مصدق.

وحسب مارك كيرتس فأن الإنجليز كان لهم عملاء منخرطين في عضوية حزب تودة، فاستخدموهم مع بعض البلطجية ليتصرفوا كما لو كانوا أعضاء تودة، ليقوموا بأعمال شغب في الشوارع ويلقوا الأحجار على واجهات المحلات التجارية - وكان التجار بصفة عامة مناصرين لقاشاني - ولإلقاء الحجارة على المساجد وعلى رجال الدين، مظهرين بوضوح أن هذا من فعل تودة، وذلك ليثيروا الذعر بين الإيرانيين ويشعروهم بأن إنتصار مصدق سيكون إنتصارا للشيوعيين.

وفي تقريره السري كتب دونالد ويلبر أن: "عملاء وكالة المخابرات المركزية أعطوا إهتماما كبيرا لتخويف القادة الدينيين في طهران من حزب تودة، وذلك من خلال نشاط الدعاية باسم تودة .. وشمل ذلك تهديد هؤلاء القادة بعقاب قاس إن هم عارضوا مصدق، وانهالت عليهم مكالمات تليفونية تحمل هذا التهديد باسم تودة، مع إلقاء القنابل على منازل بعضهم".¹⁷

¹⁶ هذان العمليان هما الأخوان راشدي، وقد جاءا من عائلة ثرية في طهران، ولم يوضح المصدر ما إذا كان قاشاني قد علم أن التمويل الذي يأخذه هو من مدفوعات المخابرات البريطانية أم أن هذين الأخوين قدماه له لدعم نشاطه المضاد لمصدق على أنه من مالهما الخاص باعتبارهما من أنصاره، ولست أدري هل هذا الإبهام من قبل المصدر هو ضعف في الصياغة أم إبهام متعمد للتدليس علينا (أنا شخصا قد أغفر لقاشاني عمله لإضعاف مصدق وأعتبره ناتجا عن سوء تقدير وقلة فهم، لكني لن أستطيع تمرير قبوله لمبالغ يعلم أنها من المخابرات البريطانية).

¹⁷ من الصعب تنفيذ هذا في مصر، فلا يوجد للشيوعيين المصريين تنظيم قوي يمكن إثارة مخاوف الجماهير منه، كما أن العدو هو التيار الإسلامي، ولن يحسب أحد تصرفات الشيوعيين على الإسلاميين، ولكن يمكنك أن تضع مكان الشيوعيين: "السلفيين"،

**

5 - الإِنقلاب

وقع الإختيار على الجنرال فضل الله زاهدي - العسكري القوي - كأفضل خليفة لمصدق، فهو الوحيد من الشخصيات ذات الثقل في إيران الذي يعارض مصدق علناً، كما أنه الوحيد الذي له أتباع في الجيش مازالوا يدينون له بالولاء،¹⁸ وتم الإتصال به وإعلامه بخطة تنصيبه كخليفة لمصدق، وطلبوا منه تعيين مندوب له من العسكريين ليشارك في وضع تفاصيل الأعمال المطلوبة لتنفيذ الإِنقلاب.

بعد إقرار الخطة صدرت عدة تصريحات للرئيس الأمريكي ووزير خارجيته تعلن عدم إرتياح الحكومة الأمريكية لأداء حكومة مصدق ولنمو نشاط الحزب الشيوعي، وصاحب ذلك قيام عدد آخر من المسؤولين الأمريكيين رفيعو المستوى بالإدلاء بتصريحات بكل المعاني التي تؤدي لإلغاء أي أمل لدى الإيرانيين في أن الحكومة الأمريكية قد تقدم أي معونة إقتصادية لمصدق، وفي ظل الأزمة الاقتصادية الخانقة في إيران كان لمثل هذه التصريحات أثرها الفعال.

وقامت وكالة المخابرات ووزارة الخارجية الأمريكية بالعمل على ظهور مقالات في كبرى الصحف الأمريكية كان لها أثر كبير في حرب الأعصاب الموجهة ضد مصدق وحكومته عندما ترجمت ونشرت في إيران، كما بدأت ماكينة الدعاية البريطانية والأمريكية في طهران في حملة مركزة من خلال مقالات الصحف وخطب بعض رجال الدين المتعاونين مع أجهزة المخابرات لإضعاف حكومة مصدق وزعزعة الثقة فيها بكل طريقة ممكنة.

ومكان رجال الدين: "مشايخ الصوفية" وتتصور واحداً من عملاء الموساد يكتب بعد ثلاثين عاماً "كان لنا عملاء زرعناهم بين السلفيين طلبنا منهم تدمير مزارات الصوفية والإعتداء على مشايخهم عقب الثورة المصرية حتى نثير المخاوف بين الجماهير المصرية المتعاطفة مع التصوف ضد الثورة التي أدى نجاحها إلى خروج السلفيين لمهاجمتهم".

¹⁸ الجنرال فضل الله زاهدي (1890 - 1963) تخرج في الكلية الحربية 1916 وشغل عدة مناصب عسكرية، واعتقلته سلطات الاحتلال البريطانية عام 1942 ونفته إلى فلسطين ثم الهند، وتقول المصادر المخبرانية أنه اعتقل لقيامه بأنشطة مساندة للألمان خلال الحرب، لكن أنصاره في إيران قالوا أنه اعتقل لأنه كان يعارض تورط إيران في الحرب واستخدام أراضيها كقاعدة لنقل السلاح إلى الإتحاد السوفياتي.

عاد زاهدي إلى إيران بعد الحرب، وعين قائداً للشرطة في 1949 ثم وزيراً للداخلية في 50 - 1951.

وفي 15 أغسطس، بعد ضغوط كبيرة من الأميرة أشرف والجنرال شوارتسكوف، وبعد عدة زيارات من كيرميت روزفلت للشاه، وقع الأخير في النهاية على فرمان عزل مصدق وتعيين زاهدي رئيساً للوزراء، وتسلم روزفلت فرمان على ألا يظهر إلا في الوقت المناسب، وتم الإتفاق على أن يبدأ التنفيذ في اليوم التالي.

وفي اليوم التالي، 16 أغسطس، توجه رئيس الحرس الشخصي للشاه بصحبة شاحنتين مملوئتين بالجنود للقبض على مصدق، لكن العملية فشلت بسبب تفوق القوات الموالية لمصدق والتي كانت متواجدة في نفس اللحظة بعدد أكبر .. إرتبكت الخطة تماما في هذا اليوم، وعندما علم الشاه بذلك هرب إلى بغداد، وكان هذا من جانبه عملاً يتسم بالتهور، لكنه كان متسقا مع الخطة على أي حال، أما زاهدي فقد استمر في مخبأه في حماية المخابرات الأمريكية، وتمكن هو وكبار أنصاره من الضباط من الإختفاء عن أنظار رجال الأمن التابعين لمصدق.

وصل السفير الأمريكي إلى طهران في اليوم التالي، 17 أغسطس، ورتبت المخابرات الأمريكية بطريقة سرية مؤتمرا صحفيا لزاهدي، كما طبعت ووزعت عددا كبيرا من المنشورات التي تعلن أن زاهدي هو رئيس الوزراء الشرعي وأن مصدق يغتصب سلطته، وقام عملاء المخابرات الأمريكية بتوزيع كميات ضخمة من صورة فرمان إقالة مصدق وتعيين زاهدي، وعملوا على إستثارة سكان طهران بمعلومة أن الشاه أضطر للهرب بسبب مصدق.¹⁹

إتصل سفير أمريكا بالشاه في بغداد وطمأنه إلى أنه سيعود قريبا إلى طهران برغم كل هذا الإرتباك، وعندما وصل إلى روما بعد ذلك إتصلوا به أيضا لشد أزره.

أكد كيرميت روزفلت ورجاله في طهران أنه برغم ما يبدو من أن الخطة تتجه إلى الفشل فإن هذا يبدو في الظاهر فقط، فعنده إشارات صلبة أن الجيش ما زال على ولائه للشاه، وأن الخطة يمكن أن تتجح، ونصحوا بشدة أن على الحكومتين الأمريكية والبريطانية أن تضغطا بكل السبل على الشاه ليصدر تصريحاً علنياً يحث الجيش والشعب على رفض مصدق وقبول زاهدي رئيساً للوزراء.

في 19 أغسطس خرجت من منطقة البازار - معقل أنصار قاشاني - مظاهرة مؤيدة للشاه، وبالطبع كان لعملاء المخابرات المركزية مساهمة كبيرة في بداية هذه المظاهرات، لكنها تضخمت بسرعة كبيرة مشيرة إلى أن الشاه مازال يحظى بالولاء في الشارع الإيراني.

¹⁹ لم يهرب الشاه بسبب أي عمل عدائي من جانب مصدق، على العكس، فقد هرب لأنه هو الذي قام بعمل عدواني ضد مصدق وقفل فيه، فهرب خوفاً من رد فعل مصدق وأنصاره.

بحلول الظهيرة إنضم الجيش في طهران للحركة المؤيدة للشاه، وفي مناطق أخرى من إيران كان الشارع تحت سيطرة المتظاهرين وبعض وحدات الجيش المؤيدة للشاه .. وبدا أن الخطة العسكرية يمكن تنفيذها الآن.

أعطت محطة المخابرات المركزية الإشارة، فخرج زاهدي من مخبأه ليقود الحركة، وكان أول ما فعله هو بث بيان من إذاعة طهران يعلن فيه أنه الرئيس الشرعي والفعلي للحكومة، وتم اعتقال كبار الضباط المواليين لمصدق، كما تمت مهاجمة منزل مصدق، وفي نهاية يوم 19 أغسطس 1953 كانت إيران بالكامل تحت سيطرة رئيس الوزراء الجديد، بينما كل أنصار مصدق وأعضاء حكومته إما هاربين أو رهن الإعتقال.

وبعدها بقليل عاد الشاه إلى إيران وحظى بإستقبال حافل.^{20 21}

أما زاهدي الذي كان عاجزا عن دفع مرتبات الموظفين بحلول أول الشهر، ولم يكن من الممكن إنتظار الإجراءات الرسمية للحكومة الأمريكية لتقديم مساعدات مالية له، فقد حولت له وكالة المخابرات المركزية خلال يومين من توليه السلطة مبلغ خمسة ملايين دولار يحل بها مشكلته.²²

* * * * *

²⁰ أنظر كيف أمكن لهم خلال عام واحد تحويل إتجاه الجماهير، فهذه الجماهير التي خرجت في مظاهرات عارمة سقط خلالها عدد كبير من الضحايا لتطالب بعودة مصدق بعدما إستقال في 16 يوليو 1952، هي نفسها التي خرجت في 19 أغسطس 1953، بعدها بسنة واحدة، لتطالب بإسقاط مصدق غضبا للشاه.

²¹ 2017 – نفس الخطة ونفس النتيجة عندنا: الجماهير التي أعطت 80% من أصواتها للإسلاميين في برلمان 2012 هي نفسها التي شعرت بارتياح كبير عند سماها لبيان الانقلاب يوم 3 يوليو 2013 .. وبعد مرور خمسة أعوام فقط كانت الجماهير الإيرانية قد عادت للتململ من الشاة، لكن الأمر استغرق 30 سنة لتنفجر في ثورة عارمة ضده.

²² 2017 – لم تكن أموال الخليج متاحة وقتها.

الفصل الثالث:

الدروس

ينبغي علينا أن نقاوم إغراء محاولة تمثيل ما يحدث في مصر بما حدث في إيران، ليس لأننا نرفض الفكرة من حيث المبدأ، ولكن لأن الإختلاف كبير بين الطرفين، مما يجعل محاولة تصور الترتيبات الخفية التي تكمن وراء الأحداث أمرا محفوفا بالمخاطر، فمن الصعب أن نحدد الآن طبيعة الأحداث التي نراها غير مفهومة، هل كانت مجرد رد فعل إنفعالي غبي ولذلك لا نجد لها مبررا، أم أن من قاموا بها كانوا مأجورين لا يمكنك معرفة دوافع منطقية لأفعالهم إلا لو عرفت من الذي إستأجرهم، أم هم عملاء مندسون كأنصار لقوى معينة يعملون تحت رايته وهم ليسوا منها، لذلك يتصرفون بطريقة لا يمكن تفسيرها في ضوء مبادئ وأفكار ومصالح هذه القوى، ولفهمهم لابد من أن تعرف من الذي دسهم.

لكن هذا لا يمنع من محاولة إستخلاص بعض الدروس مما حدث في إيران، بالذات عندما نرى ثورتنا تتكرر فيها ذات الأخطاء، ونترك للزمن، أو لتفكير كل قارئ على حدة، ليتبين العلاقة التي تربط ما تواجهنا ثورتنا وما واجهته ثورة مصدق.

- إحتاجت القوى المضادة للثورة في إيران لسنة ونصف تقريبا حتى يستقر رأيها على ما الذي تريد أن تفعله بالضبط، وخلال هذه الفترة كان كل جهدها منصبا على ضرب تحالف القوى الشعبية التي تدعم الثورة، وعلى إدخال السلطة الثورية في دوامة البحث عن طرق الخروج من أزمة إقتصادية، وإرباكها بكل الطرق الممكنة، حتى يكون الشارع مستعدا لتقبل الخطوات التي ستقوم بها لإجهاض الثورة عندما تحدد القوى المضادة ما الذي تريد القيام به .. هذا ما حدث في إيران التي جاءت فيها القيادة الثورية عبر نظام برلماني مستقر، فمن البديهي أنه عندما يفتقر الوضع لنظام مستقر أن تعرقل القوى المضادة كل محاولات بناء نظام، فهذا أسهل من تركنا نضع نظاما ثم يكون عليها زعزعتة قبل تغييره.²³

²³ 2017 – كتبت هذه الفقرة في نوفمبر 2011، لكنها كانت صادقة تماما، فقد استمر نظام الرئيس مرسي عاما كاملا دون أن يتمكن من إجراء إنتخابات برلمانية أو تشكيل مجالس محلية، ناهيك عن معالجة الشلل الكامل الذي أصاب جهاز الشرطة، ولا تعرف ما الذي كان ينتظره الرئيس مرسي لاستخدام سلطاته التشريعية لحل هذه المشاكل، لكن لا فائدة الآن من البكاء على اللبن المسكوب.

- لقد أمكن لقيادة الدكتور محمد مصدق أن تضم معا كل أطراف القوى السياسية من ليبراليين وإسلاميين ويساريين (حتى الشيوعيين كانوا ضمن التحالف)، واستمر هذا لأكثر من عام، وأمكن لهذا التحالف أن يقف في وجه الشاه ويفرض إرادته عليه، ولم تكن قدرتهم على إقامة هذا التحالف راجعة إلى خصوصية في الشعب الإيراني ولا إلى الظرف التاريخي لتلك الفترة، وإنما لطبيعة الأهداف التي كان على ثورة مصدق إنجازها: إستقلال الإرادة السياسية، والسيطرة على الموارد الإقتصادية للأمة، وبناء حياة ديمقراطية، وهذه أهداف يمكن أن تتجمع حولها كل القوى الوطنية متى إهتدت إلى صيغة ملائمة للتجمع، لا يوجد هدف منها يمكن أن يثير النزاع بينها .. هل لدينا أهداف مختلفة تسبب التنازع بيننا؟ أم كانوا هم أذكى منا فوصلوا لصيغة ملائمة لهم وعجزنا نحن عن الوصول لصيغة ملائمة لنا؟ أم أن القوى المضادة لم تبدأ في العمل الجدي عندهم إلا بعد سنة كاملة بينما تعمل عندنا من اليوم الأول؟
- إن القول بوجود أياد خفية تعمل لضرب الثورة ليس قولاً ساذجاً يتبنى نظرية المؤامرة ليبرر عجزاً عن التعامل مع الواقع وفشله في تحقيق أهدافه، ليس الأمر كذلك، فقد كشفت الوثائق السرية وقائع المؤامرة في إيران وأعلنت بعض أسماء المتآمرين وخططهم وكيف نفذوها، لكن هذا تم بعد أكثر من ربع قرن عندما تم رفع حظر السرية، ولسنا مضطرين للإنتظار كل هذه المدة لتتبين لنا الأمور عندنا .. صحيح أننا لا يجب أن نركن دائماً لتفسير كل مشكلة بأنها من صنع قوى خارجية وتبرير كل فشل بأنه نتيجة تأمر الأعداء، ولكن من الصحيح أيضاً أن هذا الإحتمال يجب أن يوضع دائماً في الإعتبار، وأن يتم التحسب له، وأن نقوم بتمحيص الوقائع لإكتشافه عندما يكون هو التفسير الصحيح.
- إن قيام مصدق بإقصاء قاشاني عن رئاسة البرلمان يوضح لنا أن قيادة مخلص ومحنكة سياسياً يمكنها أيضاً أن ترتكب أخطاء سياسية فادحة، فما بالك بقيادة تفتقر للخبرة السياسية؟ .. وفي جميع الحالات يجب الإنتباه إلى أن تصحيح الأخطاء لا ينبغي أن يتضمن الإصرار على معاقبة القيادة المخطئة، فمعاقبة القيادة في الظروف الثورية قد تؤدي ليس إلى التضحية بهذه القيادة فقط ولكن بالثورة نفسها.²⁴
- وتحول موقف قاشاني من مصدق من التحالف إلى العداة وإلى الإشتراك في جهود إسقاطه يبرز لنا نقطتين:

²⁴ 2017 – هذا للأسف هو بالضبط ما قامت به الفصائل الوطنية من غير الإسلاميين: خرجت في 30 يونيو تطالب بتنحية الرئيس مرسي بغير الطريق الديمقراطي، ولم تنتبه إلى أن التضحية بالديمقراطية في سبيل إزاحة الإخوان سيؤدي إلى التضحية بالثورة نفسها، وعندما استتب الأمر للإنقلابيين بدأوا في التخلص من قيادات ورموز ثورة يناير من غير الإسلاميين، بل ومن ذكرى يناير نفسها .. طبيعي جداً .. ليس الإخوان فقط هم الذين أخطأوا، فخصومهم كانوا أشد خطأ منهم، فالتراخي في تحقيق أهداف الثورة أقل ضرراً من تحطيم الثورة نفسها .. مرة أخرى لا فائدة من البكاء على اللبن المسكوب، المهم ألا نتجاهل دروساً دفعنا فيها ثمناً غالياً، في الوقت الذي لم تكن مضطرين لدفعه، فقد كان هذا من بديهيات العمل الثوري.

الأولى: أنه في مراحل الثورة الحرجة يجب ألا تتورط الفصائل الوطنية المختلفة في الصراع على القيادة (الصراع غير التنافس، فالتنافس يقوم على توسيع قاعدة أنصاري، أما الصراع فيقوم على محاولة إضعاف خصمي)، فالصراع بين الثوار قد ينتهي - وهو غالبا ما يحدث - بأن يضعف الطرفان بعضهما لصالح طرف ثالث هو غالبا القوى المضادة.

والثانية: أن قوى شريفة ومخلصة من الممكن أن يتم إستدراجها لإتخاذ مواقف والقيام بأعمال تخدم في النهاية مصالح القوى المضادة للثورة .. قد يتم هذا من خلال التضليل والكذب وتزوير الأدلة، وأحيانا بإصطناع مواقف غير حقيقية ونسبتها إلى الخصوم السياسيين .. المهم أنه ليست كل الأعمال التي يقوم ناس شرفاء تحت شعارات وطنية هي بالفعل في صالح الوطن، فأحيانا يقوم بعض الثوار بأعمال ضارة جدا بثورتهم.²⁵

* * * * *

²⁵ 2017 - سقط مني عند كتابة النص الأصلي واحد من أهم الدروس: لا ينبغي، مهما كانت الظروف، المراهنة على الدعم الأمريكي لأي ثورة وطنية، فالمنطق الأمريكي يقول أنه لا يجب السماح بنجاح أي ثورة وطنية مهما كان انتماء قادتها، حتى لا تكون مثالا يحتذيه شعوب أخرى، فهذا سيهدد إن أجلا أو عاجلا النفوذ الأمريكي في المنطقة .. لقد راهن مصدق على الدعم الأمريكي له، فهو ليبرالي معاد للشيوعية، وبطرده للإنجليز من إيران يخدم استراتيجية أمريكا في إخراج بريطانيا من الشرق الأوسط، لذلك ظل مصدق حتى الأسابيع الأخيرة، وربما الأيام الأخيرة، يفترض أنه يحظى بالدعم الأمريكي، ولم يخطر بباله أن ال CIA هي القائد الحقيقي لخطة إسقاطه .. للأسف تصور الإخوان أنهم سيحفظون بالدعم الأمريكي لأنهم إسلاميون معتدلون، ووصولهم للسلطة سيحل مشكلة تنامي التيارات الجهادية المسلحة في المنطقة، متأثرين بالاستقرار النسبي لحكم الإسلاميين في تركيا، لكنهم غفلوا عن الخطر الذي يمثله نجاح ثورة في مصر على أنظمة الخليج .. قد يسمح الأمريكان لنظام إسلامي بأن يصل للسلطة في مصر بطريق ديمقراطي إذا تعهد، كما يبدو أن الإخوان قد فعلوا، بعدم الإضرار بالمصالح الأمريكية في المنطقة، لكنه لن يسمح لثورة شعبية بأن تنجح، وإلا تسمح بنجاح ثورة مصدق التي كانت ثورة ليبرالية لا خطر من تحولها إلى إسلامية لأن الإسلاميين الإيرانيين - بسبب عقيدتهم الإمامية - لا يطمحون في السلطة، ومع ذلك أسقط الأمريكان مصدق، وأسقطوا مرسي بنفس الخطة وبنفس الطريقة .. هذا درس مهم لكل شعوب العالم التي تعاني من ظلم واستغلال الإمبراطورية الأمريكية الحديثة.